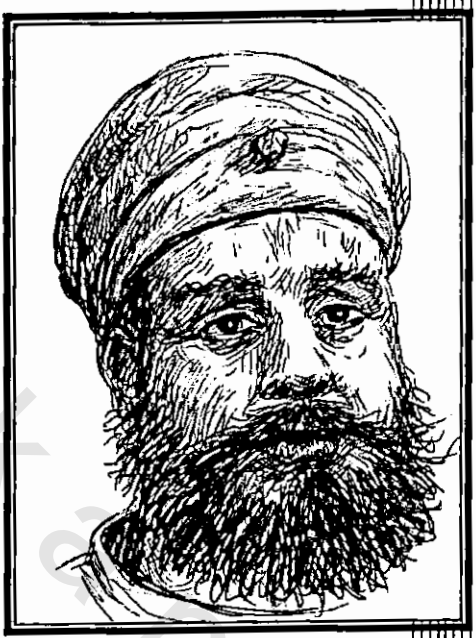

الفضيل بن عياض

(١٠٥-١٨٧هـ)

المستشار الحق

obeikandl.com

الحاكم في منطق الإسلام رجل من عامة المسلمين، رجل يؤمن بالله ويغرس الإيمان في نفوس الناس، رجل يصلي لنفسه ويؤم الأمة في الصلاة، رجل يُخرج الزكاة ويشرف على جمعها من الآخرين، رجل يصوم رمضان ويرقب حرمة الشهر في أرجاء المجتمع.

هذا هو الحاكم الذي يريده الإسلام، حاكم يطلب النصيحة، ويسعي في طلبها، حتى لايكون من يقدمها في مركز الضعف،تأتي إليه النصيحة عن طريق القدوة والمثل، حاكم يحسن اختيار مستشاريه، يجمع حوله أهل الورع والتقى، وعيون العلماء، حتي يذكروه بالله والحق إذا نسى، ويقومون من مساره إذا ضل، حاكم يجعل الشورى أساس الحكم، كما فعل رسول الله ﷺ، فقد كان يقول: «أشيروا علينا أيها الناس» امتثالا لقول الله عز وجل في كتابه الكريم: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾[آل عمران : ١٥٩]، ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ﴾ [الشوري: ٣٨].

هذا النوع من الحكام، هم الذين ساد بهم الإسلام وانتشر العدل بين الناس.

هكذا كان الخلفاء الراشدون الأربعة، ثم كان من بعدهم «عمر بن عبدالعزيز»، الذي تخلص من بطانة السوء وحاشية المستفيدين، التي أحاطت بمن سبقوه من الحاكم، والتي جاءت بهم متطلبات الحكم والسياسة ولم يكونوا يرشدون ولي أمر المسلمين إلى طريق الحق والنجاة.

جاء «ابن عبد العزيز» وقرب منه العلماء الصالحين التقي والورع فأعاد العدل والأمن ورفع راية الحق، فلم يبق في بلاد المسلمين جائع أو محتاج، ولم تعد تُسمع صرخات المظلومين وإنما علت أصوات التكبير والحمد والشكر لله رب العالمين.

عالم صالح:

ومن العلماء الصالحين، الناصحين الذين تأثروا بسيرة هذا الخليفة العادل، وحاول أن يجعل خلفاء المسلمين يهتدون بهديه ويسيرون على خطاه، «الفضيل بن عياض»، المولود في سمرقند عام ١٠٥ هـ، ثم جاء إلى الكوفة التي أصله منها، فعاش

بها فترة ثم سكن مكة، وتوفر على العلم، فكان من أكابر العباد الصالحين، وكان ثقة في الحديث، أخذ عنه العديد من علماء المسلمين، منهم الإمام الشافعي، وقد تولى مشيخة الحرم المكي، وتوفى بمكة عام ١٨٧ هـ.

دخل «الفضيل بن عياض» على أمير المؤمنين.. «هارون الرشيد»، فقال: أيكم هو؟ فأشاروا إلى أمير المؤمنين، فقال الفضيل: أنت هو يا حسن الوجه، لقد كلفت أمرا عظيما، إني ما رأيت أحدا هو أحسن وجها منك، فإن قدرت أن لا تسود هذا الوجه بلفحة من النار فافعل يرحمك الله، فقال له هارون الرشيد: عظني، قال: بماذا أعظك؟ هذا كتاب الله تعالى بين الدفتين، انظر ماذا عمل بمن أطاعه؟ وماذا عمل بمن عصاه؟

إني رأيت الناس يعرضون على النار عرضا شديدا، ويطلبونها طلبا شديدا حثيثا، أما والله لو طلبوا الجنة بمثلها أو أيسر لنالوها.

فقال هارون له عد إليَّ - أى عاود - الزيارة.

قال: لو لم تبعث إليَّ لم آتك، وإن انتفعت بما سمعت مني عدت إليك.

كان «الفضيل بن عياض» يتباعد عن رجال الحكم، ذات مرة بعد أن فرغ الرشيد من مناسك الحج، -وقد كان الرشيد يحج مرة كل عامين- رغب أن يرى الفضيل الذي كان يقيم بمكة.

استطاع «عبدالله بن المبارك» الذي كان بصحبة الرشيد أن يجمع بينهما، حيث يستمع الرشيد من الفضيل للعديد من المواعظ والنصائح، وكان الفضيل من المؤمنين بمبدأ أهمية العلم للدين والدنيا، وقد آلمه أن ينصرف عنه الناس، فلما هم هارون بالانصراف، قال له الفضيل: يا أمير المؤمنين، إني أخشى أن يكون العلم قد ضاع عندك؟ كما ضاع عندنا، فقال الرشيد: أجل، إنه ما قلت.

فلما عاد الرشيد إلى العراق، كان أول أمر كتب به إلى الأمصار كلها، وإلى أمراء الأجناد:

«انظروا من التزم الآذان عندكم فاكتبوه في ألف من العطاء، ومن جمع القرآن - أي حفظه وأقبل علي طلب العلم، وعمر مجالس العلم ومقاعد الأدب، فاكتبوه في أربعة آلاف دينار من العطاء، وليكن ذلك بامتحان الرجال السابقين لهذا الأمر من المعروفين به من علماء عصركم وفضلاء دهركم».

السابق للخيرات:

يقول «عبد الله بن المبارك»: فما رأيت عالما وقارئا للقرآن، ولا سابقا للخيرات، ولا حافظا للحرمات في أيام بعد أيام رسول الله ﷺ وأيام الخلفاء والصحابة، أكثر من زمن الرشيد وأيامه، لقد كان الغلام يحفظ القرآن وهو ابن ثمان سنين، ولقد كان الغلام يستبحر في الفقه والعلم ويروي الحديث، ويحفظ الدواوين ويناظر المعلمين وهو ابن إحدى عشرة سنة.

كان «الفضيل» في عظاته ونصائحه للرشيد حكيما بليغا ذكيا، ينبهه إلى ما يريد بحكمه، ففي إحدى مجالسهما، قال الرشيد للفضيل: ما أزهدك؟

فرد على إعجابه بزهده قائلا: أنت أزهد مني يا أمير المؤمنين، قال: وكيف ذلك؟

قال: لأني زهدت في الفاني، وزهدت أنت في الباقي.

يريد أن يقول: أني زهدت في الدنيا، وزهدت أنت في الآخرة.

كان «الفضيل» بالنسبة «لهارون» مصباح الهدى الذي يضيء له الطريق، فلم يبخل عليه بنصح، وكان يعمل دائما على أن يكون له الناصح الأمين الناجي به عن طريق الضلال.

يقول «الفضل بن الربيع» وزير «هارون»: حج أمير المؤمنين هارون الرشيد - فأتاني، فخرجت إليه مسرعا. فقلت: أمير المؤمنين لو أرسلت إلي أتيتك.

فقال: ويحك قدحاك في نفسي شيء فانظر لي رجلا أسأله.

قلت: هاهنا «سفيان» بن عيينه.. فقال: امض بنا إليه، فأتيناه، فقرعنا الباب،

فقال: من ذا؟

قلت: أجب أمير المؤمنين. فخرج مسرعا فقال: يا أمير المؤمنين لو أرسلت إليَّ لأتيتك.

فقال: خذ لما جئنا إليه رحمك الله، فحدثه ساعة، ثم قال: عليك دين؟

فقال: نعم، فقال: أبا العباس اقض دينه.

فلما خرجنا قال: ما أغنى عني صاحبك شيئا.. انظر لي رجلا أسأله.

قلت: ها هنا الفضيل بن عياض.

قال: امض بنا إليه.. فأتيناه فإذا هو قائم يتلو آية من القرآن يرددها.

فقال: اقرع الباب.. فقرعت الباب، فرد الفضيل: من هذا؟

قلت: أجب أمير المؤمنين.

قال: وماذا يريد أمير المؤمنين؟

فقال: الرشيد سبحان الله، ما عليك طاعة.

فقال: أليس قد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: ليس للمؤمن أن يذل نفسه.

ثم نزل ففتح الباب، ثم ارتقى إلى الغرفة، فأطفأ السراج، ثم التجأ إلى زاوية من زوايا البيت، فدخلنا نجول بأيدينا، فسبقت كف هارون قبلي إليه.

فقال: يا لها من كف.. ما ألينها إن نجت غدا من عذاب الله عز وجل.

فقلت في نفسي: ليكلمنه الليلة بكلام من قلب تقي.

فقال الرشيد: خذ لما جئناك له رحمك الله.

قال «الفضيل»: إن «عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه لما ولي الخلافة دعا «سالم

ابن عبد الله» و«محمد بن كعب» و«رجاء بن حيوة».

فقال لهم: إني قد ابتليت بهذا البلاء فأشيروا عليَّ.

فقد عد «عمر بن عبدالعزيز» الخلافة بلاء، وعددتها أنت يا هارون وأصحابك نعمة.

فقال له «سالم بن عبد الله»: إن أردت النجاة من عذاب الله، فصم عن الدنيا، وليكن إفطارك منها الموت.

وقال له «محمد بن كعب»: إن أردت النجاة من عذاب الله، فليكن كبير المؤمنين عندك أبا، وأوسطهم أخا، وأصغرهم عندك ولدا، فوقر أباك، وأكرم أخاك، وتحنن على ولدك.

وقال له «رجاء بن حيوة» : إن أردت النجاة غدا من عذاب الله، فأحب للمسلمين ما تحب لنفسك، واكره لهم ما تكره لنفسك ثم مت إذا شئت.

الإمارة حسرة وندامة :

ثم أردف الفضيل قائلا: وإني أقول لك: إني أخاف عليك أشد الخوف يوما تزل فيه الأقدام، فهل معك رحمك الله- مثل هذا، أومن يشير عليك مثل هذا؟

فبكى هارون الرشيد بكاء شديدا حتى غشي عليه.

فقلت له: ارفق يا أمير المؤمنين بنفسك، فقال للفضيل: زدني رحمك الله.

فقال: يا أمير المؤمنين: إن العباس عم المصطفى ﷺ جاء إلى النبي عليه الصلاة والسلام. فقال: يا رسول الله أمرني على إمارة.

فقال النبي ﷺ: **«إن الإمارة حسرة وندامة يوم القيامة، فإن استطعت ألا تكون أميرا فافعل»**.

فبكى «هارون الرشيد» بكاء شديد ثم قال: زدني رحمك الله.

فقال «الفضيل»: يا حسن الوجه، أنت الذي يسألك الله عز وجل عن هذا الخلق يوم القيامة، فإن استطعت أن تقي هذا الوجه من النار فافعل، وإياك أن تصبح وتمس وفي قلبك غش لأحد من رعيتك، فإن النبي ﷺ قال: «من أصبح لهم غاشا لم يرح رائحة الجنة» رواه البخاري ومسلم.

فبكى «هارون الرشيد»، وقال له: أعليك دين؟

قال: نعم، دين لربي لم يحاسبني عليه، فالويل لي إن سألني، والويل لي إن ناقشني، والويل لي إن لم ألهم حجتي.

قال «الرشيد»: إنما أعني من دين العباد، قال: إن ربي لم يأمرني بهذا، إنما أمرني أن أصدق وعده، وأطيع أمره،ثم قرأ قول الله تعالى:﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ ﴾ [الذاريات: ٥٦-٥٨].

فقال «هارون»: هذه ألف دينار خذها فأنفقها على عيالك وتقو بها على عبادتك.

سيد المسلمين:

فقال: سبحان الله، أنا أدلك على طريق النجاة، وأنت تكافئني بمثل هذا سلمك الله ووفقك، ثم صمت فلم يتكلم فخرجنا من عنده فلما صرنا إلى الباب قال «هارون الرشيد»: إذا دللتني على رجل، فدلني على مثل هذا، سيد المسلمين.

فلما انصرفنا دخلت عليه امرأة من نسائه فقالت: يا شيخ قد ترى ما نحن فيه من ضيق الحال، فلو قبلت هذا المال فتفرجنا به، فقال لها: مثلي ومثلكم كمثل قوم لهم بعير يأكلون من كسبه، فلما كبر فروه أكلوا لحمه.

فلما سمع «هارون» هذا الكلام قال: ندخل فعسى أن يقبل المال. فلما علم الفضيل، خرج فجلس على باب الغرفة في السطح، فجاء هارون فجلس إلى جنبه، فجعل يكلمه فلا يجيبه، فبينما نحن كذلك إذ خرجت جارية سوداء فقالت: يا هذا

قد آذيت الشيخ منذ الليلة فانصرف رحمك الله. فانصرفنا.

فنعم العالم التقي الورع كان «الفضيل بن عياض»، ونعم الحاكم كان هارون الرشيد، الذي ظلمه البعض افتراء، وشتان بين هذا العالم وهذا الحاكم وبين مستشاري اليوم الذين يزينون للحاكم الباطل، وتناسوا رسالتهم وتحولوا إلى مضحكين للحكام يلقون إليهم بالنكات بدلاً من أن يتوجهوا إليهم بالنصائح والعظات.

obeikandl.com